النظام الاقتصادي والاجتماعي
في إقليم الشلال الثالث (المحس) - الولاية الشمالية

د. عبد الرحمن إبراهيم سعيد علي

أستاذ مشارك – قسم الآثار – جامعة الخرطوم

المستخلص

تتناول هذه الورقة النظام الاقتصادي والاجتماعي في منطقة الشلال الثالث (المحس). وهي من الأنظمة التي لم تنل حظها الوافر من الدراسة، عدا القليل من الكتابات، حيث تعدُّ هذه الأنظمة العمود الفقري لأيّ كيان سياسي. وتحاول الورقة إبراز أهم أنواع تلكم الأنظمة الموجودة في المحس (في ظل الدراسات الجديدة) التي تضم منطقة الشلال الثالث. تشمل الدراسة إبراز أهم أنواع الأنظمة الاقتصادية في المنطقة، والمميز لهذا الاقتصاد أنه متعدد (زراعي، تجاري، صناعات حرفية، ثروة سمكية...الخ). بالإضافة إلى النظام الاجتماعي الموجود بها، والذي لا يتم بمعزل عن هذا النظام (الاقتصادي)؛ ذلك لأن الهدف من البحث هو التعريف بهذه الأنظمة، وفي تلك المنطقة التي تفيد في فهمنا للتفاعل ما بين السكان الأصليين في منطقة الدراسة، وما يختلط بهم من أغراب.

الكلمات المفتاحية: النظام الاقتصادي والاجتماعي، الشلال الثالث، المحس، النوبة، ما قبل التاريخ

Abstract

This paper discusses the economic and social system in the Third Cataract region (el-Mahas), it is one of the systems that has not received extensive study, and these systems are considered the backbone of any political entity. The paper attempts to highlight the most important types of these systems present in the Third Cataract region. What is distinctive about this economy is that it is diverse (agricultural, commercial, craft industries, fisheries, etc.), in addition to the social system that exists within it. This is because the aim of the research is to introduce these systems, which are useful in our understanding of the interaction between the indigenous people in the study area and the strangers who mix with them.

Keywords: Economic and social system, The third Cataract, Elmahas, The Nubia, Prehistory

مقدمة:

يعدُّ الاقتصاد العمود الفقري لازدهار أي كيان سياسي. والمتتبع لتاريخ النوبة الطويل والحافل بالإنجازات لا يرى تسليطاً كبيراً على الاقتصاد، بل هناك إشارات أو فقرات قصيرة. فكل الذي كتب عنها لا يعدو أن يكون تاريخاً سياسياً عاما وتاريخ ملوك وأسر حاكمة، عدا بعض الشذرات البسيطة مثل رسالة دكتوراه علي عثمان (التاريخ والاقتصاد في النوبة الوسيطة- 1978م). فالتاريخ لا يمكن أن يفهم بمعزل عن الإنسان العادي في نشاطه اليومي وصراعه من أجل الحياة وما يتضمن ذلك من تقسيم العمل، الزراعة، التجارة، الصناعات الحرفية والثروة والسمكية وغيرها من نشاطاته الاجتماعية الأخرى وأنظمته الإدارية.

وفي هذا البحث ألقينا الضوء على بعض الأنشطة الاقتصادية المهمة لإنسان تلك المنطقة، والتي تشمل النواحي الزراعية والتجارية والصناعات الحرفية والثروة السمكية؛ وذلك مما يفيدنا في فهم التفاعل بين سكان المنطقة عامة، وما يختلط بها من أغراب كالعثمانيين وغيرهم. ومما لا شك فيه أن كل هذا لا يتم بمعزل عن النظام الاجتماعي لمنطقة الدراسة.

الموقع:

تقع منطقة المحس (الشلال الثالث) على طول نهر النيل، وتمتد من الحدود الجنوبية لمنطقة السكوت وحتى الحدود الشمالية لمنطقة دنقلا، أي من مدينة كرمة وحتى الامتداد الجنوبي لقرية واوا على الحافة الشمالية. وبدقة بين خطي عرض 42 ° 19° و 21° شمال خط الاستواء. ونجد أن حدود منطقة السكن على الجانبين (الضفتين الشرقية والغربية) على مساحات محدودة على طول نهر النيل حوالي 125 كلم على الجانبين من النيل. وساكني منطقة المحس يكوّنون حوالي (45) قرية على الضفتين، وامتداد القرية امتداد طولي على النيل من (2-5) كيلومترات وكلها موزعة وغير متساوية وبأحجام مختلفة كذلك. ونجد كذلك حوالي (27) قرية على الضفة الشرقية والأخريات حوالي (18) قرية على طول الضفة الغربية من النيل. علاوة على ذلك هنالك (8) جزر صغيرة داخل النيل على طول المنطقة. ويبدو أن الأراضي الزراعية الصالحة متاحة على شريط موازٍ للنيل (Osman, 1998, 3).

جيولوجيا المنطقة:

من المعروف أن الصحراء النوبية يوجد بها تنوع في الطبيعة الجيولوجية، ولكن نجد أن الصخور الرملية والجرانيت يلعبان دوراً كبيراً في هذا التنوع. والملاحظ أن الصخور الحادة وصخور الجرانيت يوجدان في أشكال حادة ومدببة ومتصلة ببعضها البعض في شكل سلاسل تفصل بينها الأودية العميقة. كما نجد أن

مجرى النيل ضيق ومنساب، تتخلله بعض الجزر والشلالات، وهنالك أنواع أخرى من التربة (Adams, 1977, 13).

والنيل على طول المنطقة يجري على أرض قديمة وعتيقة وغير مستوية وهنالك عدد من الشلالات مسيطرة على المنظر العام. وهو كذلك يسير بطرق ملتوية ومتعرجة بين الصخور البركانية، وهنالك تغييرات في سير جريان النيل نحو الشمال، مثلاً في النقطة الشمالية الغربية لكرمة وعلى بعد (25) كلم من تحركه يتجه شرقاً، وبين كرمة ودلقو يضع النيل انحناءة بارزة نحو اليمين، ويمتد من جزيرة أردوان حيث يدور النيل شرق غرب حتى شلال كجبار قرب فريق، حيث يعاود جريانه نحو الشمال مرة أخرى، وهذا التغير ناشئ من الصخور البلورية الكثيرة المتنوعة والحواجز المرتفعة بسبب حركة الأرض عبر ملايين السنين. كما وهنالك حالات طبيعية تعزز من حالات الحركات الأرضية مثل التعرية والخلع اللتين تحدثان بواسطة جريان المياه، والذي يسبب في عملية الهدام، والرياح التي تسبب زيادة التلال الرملية (الكثبان الرملية).

عموماً تكثر في منطقة الشلال الثالث الخيران والأودية، وهذا يدل على إحاطتها بالجبال، وهذه الخيران ضيقة وطويلة وتعدُّ ممرات طبيعية للأمطار التي تسقط في الصحراء وتصب في النيل. وهذه الخيران يمكن أن تكون طويلة أو قصيرة أو تكون أفرع لخيران أخرى. وخير مثال لذلك المنطقة الواقعة بين أشو وجوقل يوجد بها حوالي (15) خورا، إضافة إلى كاسنفركي ومركول ودفوي. وتعدُّ الخيران مؤشراً لدراسة التغيرات الإيكولوجية عقب الحقب الجيولوجية المختلفة (Dawoud, etal. 1973, 33).

المناخ:

تقع هذه المنطقة في مناطق المناخ الصحراوي حيث تقل الأمطار، وقد تنعدم تماماً أحياناً لعدة سنوات. ومستوى المطر في أعلى إيراداته لا يتجاوز 90ملم في السنة ونجد أن معظم شهور السنة جافة. وترتفع درجات الحرارة وتصل إلى أقصاها في شهري مايو ويونيو ومتوسط درجة الحرارة اليومية عادة ما يكون فوق ال 30 درجة فهرنهايت. أما الرطوبة فترتفع في منتصف اليوم إلى حوالي 10% في شهري مايو ويونيو و15% في أغسطس. وفي الشتاء يصبح الجو بارداً لفترة 4 أشهر ومتوسط درجة الحرارة يتراوح ما بين 15-20 درجة (60 °فهرنهايت) حيث تنخفض الحرارة في شهر يناير (Adams, 1977, 16).

تشهد المنطقة العواصف الترابية التي تسببها الرياح التي تهب من الشمال بمتوسط سرعة يتراوح ما بين 15-20كلم/الساعة. كما نجد الرياح الشرقية والغربية والجنوبية كذلك. وهنالك نوع آخر من الرياح يعرف بالسموم وهي الرياح الجافة الصحراوية، والتي عادة ما تحدث بين شهري مايو ويونيو. وهذان الشهران غير مهمين في الدورة الزراعية؛ لأنهما الشهران الفاصلان بين الموسم الزراعي الشتوي والصيفي. وفيهما لا يوجد

نشاط زراعي يذكر. إلى جانب ذلك هنالك العديد من العواصف الحمراء التي تغطي الإقليم، خصوصاً أواسطه حيث تنعدم الرؤية تماماً. ونجد أن عملية المناخ مهمة للإنسان والحيوان والنبات؛ لذا فإن العلاقة بينهم مهمة لأخذها في الاعتبار، ولابد من الأخذ بها لأن المناخ يؤثر في وجودها وتشكيلها (Osman, 1980, 8).

التربة:

على الرغم من أن الأرض صحراوية في هذه المنطقة، لكن توجد بعض الأراضي الصالحة للزراعة، وهذه تتمثل في مناطق الطمي، والتي توجد في منطقة ضيقة بالقرب من النيل، ويمكن تقسيم الأراضي الزراعية إلى:

أراضي السلوكا:

وهو النوع الذي يشمل الجوانب المنحدرة التي تلي النيل مباشرة بالإضافة للجزر. وهي تشهد فيضان النيل سنوياً، وهي تربة طينية غرينية تتكون من المعادن والدبال (بقايا النباتات والحيوانات ومجموعة من نسيج القماش). وهي تربة خصبة تتجدد سنوياً بفيضان النيل والتي تحافظ على الخصوبة.

أراضي الشادوف:

وهي الأراضي الممتدة بعد أراضي السلوكا مباشرة، والتي تشمل أراضي ضفاف النيل الطينية المرتفعة وتشهد الفيضان في مواسم ارتفاع النيل ارتفاعاً حاداً. وهي تربة غرينية خصبة، ترسبت حديثاً بواسطة النيل كما أنها مشابهة لتربة السلوكا لكنها لا تتجدد سنوياً مثلها. وهذا النوع من التربة مهم جداً لزراعة الغلال وأعلاف الحيوانات إلى جانب بعض الخضروات.

أراضي الساقية:

وهي الأراضي الأصلية المستديمة، وهي أراضي طينية ترتفع عن مستوى الفيضان، وهي أقل خصوبة عن الأراضي المذكور أعلاه. ولأنها تتعرض سنوياً للتجديد من قبل فيضان النيل فإنها عرضة للحرث المستمر من قبل المزارعين، وكذلك فالحي الأرض الذين يستعملون السماد الطبيعي.

أراضي الحوض:

وهي الأراضي الطينية المنخفضة التي تروى فقط موسمياً، عموماً توجد أمثل قليلة من هذا النوع

في مناطق النوبة، وهي التي تم استصلاحها حديثاً في كل من كرمة ودنقلا.

هنالك نوع آخر من التربة وهي تربة الصحراء وهي ضعيفة، وتتكون من ذرات الصخور الحجرية وذرات الرمال، وهي فقيرة جداً بالنسبة للأخريات، ونادراً ما تستعمل في الزراعة متى ما أتيح الري. وهكذا نجد التغير في أنواع التربة من التربة الصحراوية إلى تربة السلوكا الغنية الخصبة. ومما يؤثر على الأراضي الزراعية تقدم التلال الرملية (الزحف الصحراوي)، والتي تنتقل بخطى ثابتة ومتماسكة لتحد الأراضي الزراعية في هذه المنطقة، والتي تعمل على الإضرار بها. وهذه التلال تنتقل بخطورة أكثر على الضفة الغربية للنيل. وهي تسبب ما تسبب من خطورة على تلك المناطق خاصة ما بين الشلال الثالث وقرية كوكا (Dawoud etal. 1973, 36).

النبات:

بما أن الطقس الصحراوي في المنطقة لا يمكن من نمو غطاء نباتي للتربة، فإن الأماكن الوحيدة التي يمكن الزراعة فيها هي التي تكون على ضفاف النيل، أو مجاري المياه الموسمية، أو على حواف الصحراء. ونجد أشجار النخيل على طول الخط المتاخم للنيل، والذي يحتاج لدرجة حرارة عالية، وشمس ساطعة ومياه وفيرة للبذور. كما أن منطقة النوبة من أحسن المناطق لإنتاج التمور الجافة. إلى جانب ذلك نجد أشجار الدوم، أما حشائش الحلفا فهي الأكثر وجوداً في المنطقة، كما تحتوي المنطقة الزراعية على العديد من أنواع الأشجار من عائلة السنط (Acacia) وأكثرها انتشاراً السنط (الطلح) الهشاب، الكتر والعديد من الأشجار الأخرى مثل الطرفة والطندب، وأقلها وجودا شجر السدر. أما القمح فهو المنتوج النقدي الثاني في النوبة، وشتاء النوبة عامل مساعد في إنتاج القمح، وهو يزرع سنوياً في حوالي 30 ألف فدان، والزمن المحدد للزراعة من شهر ديسمبر إلى شهر أبريل.

وفي الوقت الحالي يعرف النوبة بالشعوب الآكلة للقمح، إذ يلعب هذا المحصول دوراً مهماً في النشاط الفلكلوري والثقافي في المنطقة، فالقمح المشوي (القرطم) يخلط مع بعضه البعض ويسمى (بالأسلي)، وهو مهم جداً في مراسم الزواج. والقمح والبلح يشكلان عنصراً أساسياً في المناسبات الاجتماعية المختلفة. وبالرغم من محدودية الأراضي الزراعية في المنطقة نجد أن القمح والبسلة من أهم المحاصيل الغذائية اليومية.

أما الذرة فلا تعدُّ محصولا أساسيا للإنسان ولا نقديا ويزرع على أنه علف. كما نجد النباتات النيلية الأخرى، وحشائش تنبت على ضفتي النيل، أما النباتات الصحراوية فتكون عادة من حشائش الحلفا، والذي يستخدم في صناعة الحبال وعلفا أيضاً. وفي مناطق الصحراء نجد الحشائش والشجيرات خصوصاً على طول الخيران والأودية (Osman, 1980, 4).

الحيوانات:

الحياة البرية في مناطق النوبة الحديثة تتمثل في وجود العديد من أنواع الحيوانات مثل الغزلان والأرانب، الفئران، الثعالب، والذئاب، وهي تعيش في أماكن ليست بعيدة عن مجري النيل (Adams 1977, 16).

كذلك نجد الحيوانات الأليفة التي تلعب دوراً مهماً في الاقتصاد، مثل الماشية التي تستخدم في الأغراض الزراعية والنقدية. بالإضافة لذلك توجد الخراف والماعز والحمير التي تعدُّ من أكثر الحيوانات استخداماً في الزراعة والنقل. كما توجد أعداد بسيطة من الإبل وهي تستخدم في نقل الحمولات الثقيلة، وتوجد أيضاً الكلاب والقطط بالإضافة لبعض الدواجن مثل الدجاج، الحمام، البط البري، الغربان، العصافير، اليمام، الهدهد، الصقور، بالإضافة لبعض الطيور المهاجرة التي تهاجر إلى المنطقة من أوربا شتاءً. أما الحيوانات المائية فتوجد أنواع كثيرة من الأسماك التي تعدُّ مصدراً غذائياً هاماً، أيضاً توجد التماسيح النيلية، ولكنها نادراً ما ترصد كما توجد بعض الزواحف النيلية النادرة مثل السلحفاة والورل النيليين (Osman, 1980, 5).

خلفية تاريخية:

برهنت أعمال المسح الآثاري الذي تم في المنطقة على وجود إرث ثقافي وعمراني تليد يشتمل على عدد كبير من مواقع ما قبل التاريخ، والمواقع التاريخية (انظر خريطة رقم 1).

الاقتصاد الزراعي:

بدأ التحول تدريجياً نحو الاقتصاد الزراعي في السودان كغيره من مجتمعات ما قبل التاريخ في فترة العصر الحجري الوسيط، عندما بدأ يتجه لإنتاج الطعام منذ الألفية الخامسة ق. م. غير أن أقدم دليل مباشر لإنتاجه في السودان يؤرخ لعهد المجموعة (أ) (حوالي 2800 ق. م) ذلك بعد آلاف السنين من التطور الثقافي والتقني. وقد كان أصحاب هذه المجموعة أول من مارس الزراعة بقواعد منظمة في السودان. وكان اعتمادهم على فيضان النهر الطبيعي حيث زرعوا في السهل الفيضي (Nordstrom, 1972) وكانت محصولاتهم القمح والشعير والبقوليات.

هذا النوع من الزراعة ما زال يمارس عند أهل النوبة الحاليين، وهو المعروف بزراعة السلوكا – الاسم مشتق من عصاة بذر الحبوب التقليدية المسماة (السلوكا). ويطلق كذلك على الأرض التي تزرع فيها بهذه الأداة.

وهناك احتمال على الرغم من نقص الأدلة أن تكون الآلات الخشبية المستخدمة في الزراعة قد استخدمت بواسطة سكان المجموعة (أ).

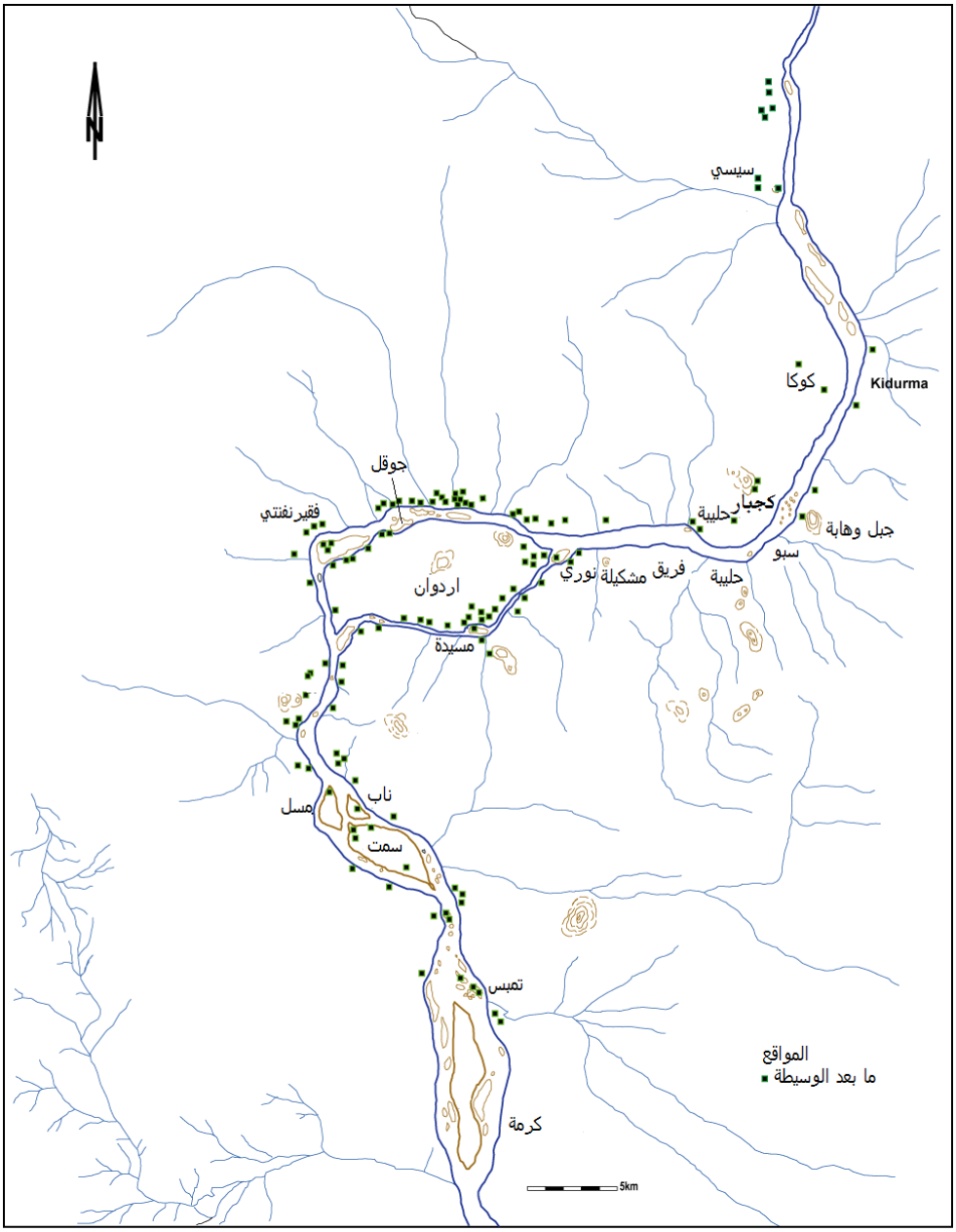

خريطة رقم (1): إقليم الشلال الثالث (المحس) (تصميم الباحث)

ثم أعقبت المجموعة (أ) المجموعة (ج) والتي أحدثت جدلاً كبيراً فيما إذا كان اقتصادهم زراعيا أم أنهم كانوا رعاة بقر، وذكر آدامز أن اقتصادهم كان زراعياً. وقام بمقارنتهم مع مجموعة الشلك النيلية الذين يعدون ثروتهم بعدد الأبقار، إلا أنهم اعتمدوا على الزراعة، وذكر كذلك أن المساكن الدائرية التي وجدت في مواقع المجموعة (ج) إذا ما صح تفسيرها على أنها صوامع ومخازن غلال فهذا دليل أكيد على معرفتهم بالزراعة (Adams, 1977, 32).

أما كرمة، إلى جانب اعتمادها على التجارة مع مصر اعتمدت كذلك على اقتصاد زراعي اشتهرت فيه باستغلال الحياض في كرمة والسليم، وقد تميزت كرمة بموقعها المهم الذي ساعد سكانها على التحكم في وادي النيل تجاه الشلال الرابع، كما ساهم موقعها الاستراتيجي في الإشراف على الطريق المتجه إلى كسلا والبحر الأحمر. والجدير بالذكر أن البعثة السويسرية التي كانت تعمل هناك اكتشفت عددا من المواقع في الصحراء الشرقية أكدت أنها كانت مزروعة سابقاً. وقد توصل سكان كرمة لمعرفة عدد من وسائل الري بجانب ري الحياض، ويدل على ذلك مخلفات روافع المياه التي وجدت في سهل كرمة والتي أرخت إلى 1500 ق. م. إضافة للتطور الزراعي المحلي في المجموعات النوبية وكرمة كان هنالك أثر مصري في عهد المملكة الحديثة، حيث دخل الشادوف بوصفه وسيلة لرفع المياه في هذه الفترة، وذلك ساعد في تعويض انخفاض مستوى الفيضان الذي حدث في عهد المملكة الوسطى. وقد رافق تطور الزراعة والري في عهد كرمة والمملكة الحديثة تطور اجتماعي وسياسي (Trigger, 1965, 111).

أما الفترة الكوشية الثانية في نبتة فقد أثمرت الفلاحة البسيطة تلك التي تكفي الحاجات المحلية، بينما كوش التالية في مروي فقد كانت الزراعة النشاط الرئيسي لسكانها، ومن خلال الأدلة والبقايا التي وجدت في مواقعها اتضح أنهم مارسوا الزراعة على ضفتي النهر على الحياض وفي الجزر الغرينية، كما قاموا بتطوير الاقتصاد الزراعي في مناطق أخرى متعددة، كما بنوا الحفائر لتخزين المياه. إضافة إلى مياه الآبار والأمطار والأودية، وهنالك إشارات تدل على وجود أنواع من المحاصيل في العصر المروي مثل الذرة والدخن والقطن (سليمان، 2003م، 59). وفي أواخر عهد مروي حدث تغير بيئي أدى لتدهور موارد الري والزراعة المطرية، مما دفع السكان للهجرة. وقد كان تأثير التغير المناخي قليل في المناطق الشمالية في النوبة السفلى؛ نسبة لأن اعتمادهم لم يكن على مياه الأمطار. كما وفرت السواقي والشواديف احتياجاتهم من المياه لري أراضيهم الضيقة. وشهدت المنطقة نوعاً من الازدهار بسبب دخول الساقية، وأصبح جلياً أن استيطان النوبة السفلى بواسطة المرويين ومن ثم البطالمة، لم يكن ممكناً بسبب ارتفاع مستوى المياه في النهر، ولكن أمكن ذلك بعد إدخال الساقية.

أدى إدخال الساقية لتعمير منطقة النوبة السفلى التي ارتفع عدد سكانها. ولم يقتصر استخدام

الساقية في الأنحاء الشمالية من مملكة مروي فقط، فقد وجدت أدلة السواقي في أجزاء المملكة الجنوبية، الأمر الذي أدى لاتساع حدود مروي إلى سنار وكردفان. وساعدت في حالة الرخاء والتطور الاقتصادي الذي أدى إلى المزيد من التطور في الحضارة المروية. إلى جانب الساقية عرف المرويون وسائل أخرى أشهرها ري الحياض والري من الآبار، إلى جانب معرفتهم نظام القنوات، إضافة إلى اعتمادهم على مياه الأمطار والأودية. وربما كان دمار السواقي، ونقصان معدلات الأمطار، وجفاف مصادر المياه من الأسباب التي أدت لتدهور الاقتصاد في مروي ذلك الذي أعقبه تدهور وسقوط مملكة مروي.

أما فترة العصور الوسيطة فقد شكلت الزراعة أساساً اقتصادياً مهماً في النوبة خاصة الفترة الكلاسيكية، يتضح ذلك من خلال الأدلة الأثرية والتاريخية، حيث وجدت اهتماما كبيرا، وشهدت التقنيات تقدماً وتطوراً ملحوظاً، وأصبح هنالك تنظيما عاليا للعمليات الزراعية. ومع استمرار أنظمة الري الأخرى استمرت الساقية في التطور كذلك، وأدت دورها بكفاءة وأسست عدداً من السواقي، وأصبح النوبيون متخصصين في صناعة السواقي وإصلاح أجزائها. ودخل نظام جديد حيث نجد اختراع الساقية الصغيرة التي تسمى (الكلتوت) نشأت لتدعم السواقي الكبيرة بالمياه عندما تكون بعيدة عن النيل. وقد أثرت أنماط الزراعة المكثفة، وارتفاع مستوى التكنولوجيا المصاحبة لها في علاقات الإنتاج، ونظام ملكية الأراضي، وهذه العلاقات نجدها بوضوح في الرقعة الجلدية التي وجدت في (نَوْري) والتي توضح اتفاق بين مالك الأرض والمزارع (Osman, 1978, 61-62).

وقد ألقت كتابات ابن سليم الأسواني الضوء على التاريخ السوداني في العصور الوسيطة، حيث تحدث عن الزراعة في النوبة، وذكر بأن سكانها لا يعتمدون على الري الطبيعي نسبة لارتفاع أراضيهم. كما تحدث عن استخدام الأبقار في السواقي، وتحدث عن وحدة قياس الأرض عندهم (الفدان) وعن النخيل وغيرها. وقال إنهم يقومون بزراعة الأراضي مرة ثانية بعد تجديدها في الصيف، ويزرعون الأراضي بالسمسم واللوبيا. ونجد كذلك المقريزي وابن حوقل وغيرهم من الذين وصفوا بلاد النوبة مبينين أن الصورة لا تختلف كثيراً بين الماضي والحاضر. كما ذكر المسعودي في أواخر العصور الوسيطة سنة (956م) أن إنتاج بلاد النوبة هو التمر والذرة والموز والقمح إلى جانب الليمون (فانتيني، 1978م، 23).

تأتي فترة مملكة الفونج الإسلامية وفي حدودها الممتدة من حنك شمالاً حتى فازوغلي جنوباً، ومن سواكن شرقاً حتى كردفان ودارفور غرباً، والتي استمرت فيها الساقية تؤدي وظيفتها في ري الأراضي الزراعية (شقير، 1972م، 212). بينما إلى الشمال حيث حكم العثمانيون المنطقة، فقد استمرت الساقية وكانت ثروة الفرد تقاس بما يملكه من السواقي. وذكر الرحالة (بروكهاردت) أن عدد السواقي في المنطقة الواقعة بين أسوان وحلفا بلغ 7 آلاف ساقية، وعدد السكان 100 ألف نسمة، وذكر كذلك بأن الأرض في بلاد النوبة

وجنوبها في سنار تقدر على أساس السواقي، وتروي الساقية الواحدة 3-5 أفدنة وتحتاج ما بين 8-10 من الدواب، وحين ينجح الزرع فإنها تنتج ما بين 8-10 أرادب من القمح والشعير. وكانت تفرض على السواقي ضرائب سنوية، تدفع من المحاصيل والحيوانات (بروكهاردت، 1959م).

السواقي في إقليم الشلال الثالث (المحس):

الساقية إحدى وسائل الري المهمة في السودان حتى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث دخلت إلى السودان من مصر في أوائل العهد المروي، وأول ما دخلت استخدمت في النوبة السفلى، وانتشرت منها جنوباً. وقد كان لدخولها السودان أثر بالغ في حياة الناس، ونجد الكثير من العلماء اتفقوا على عظم أثر الساقية في الحياة الاقتصادية لسكان مروي، وذكروا بأنها أسهمت في تطور المملكة المروية، وساعدت في اتساع أجزائها حتى بلغت كردفان وسنار. وفي تطور علاقاتها الخارجية بالحضارة المعاصرة لها في مصر وبلاد فارس وروما (Adams, 1977, 25). كما ساهمت الساقية في زيادة عدد السكان، خاصة في منطقة النوبة السفلى التي كانت قبل مجيء الساقية خالية من السكان.

وقد جاءت الساقية في وقت عصيب وأعادت الحياة إليها، وهكذا كان مفعولها التقني فعالاً وحاسماً بالقدر الذي أعطى للزراعة أساسا ثابتا جعلها تستقل عن مزاج الفيضان المتأرجح، وتخرج عن نطاق الجزائر والجروف الضيق. ومكن المزارع من زراعة أرض ترتفع عن منسوب النيل، ما كان لها أن تزرع إلا بها. وقد تنوعت المحاصيل وتوسعت الرقعة الزراعية وارتفع العائد من الأرض، وكان من جراء ذلك أن أصبحت أرض النوبة مهيأة لحياة أكثر استقراراً وأرحب رخاء، وأضحت قادرة على أن تتحمل مزيداً من السكان. كذلك جاءت الساقية إلى النوبة الوسطى، وانتشرت فيها في الفترة نفسها التي شهدتها النوبة السفلى. ومن المؤكد حقيقة أن المرويين استقروا في الشمال لأن اعتمادهم منذ البدء كان على أرض البطانة الغنية بمراعيها، ووديان الخريف الخصبة التي كانت تمتلئ بمياه الخريف، وكانت الأمطار الموسمية كافية بقدر مناسب للمراعي في السهول وللزراعة في الوديان. ونجد أن أثر الساقية في الشمال كان أبقى حيث إن ندرة الأمطار وضيق مساحة الجزر والجروف جعلت المعول على الري الصناعي. وكان جو الشمال الحار يستلزم معدلاً عالياً من الري، ولم يكن من المقدر توفر مثل هذا الري إلا بالسواقي. ولذلك كانت السواقي أبقى أثراً في الشمال، وأكثر تأثيراً في وجدانه (أبو سليم، 1980م، 198-201).

ونستدل على وجود الساقية قديماً من خلال بقايا القواديس الفخارية التي كانت تستعمل في السواقي، فهي الأثر الوحيد الذي يبقى منها، إذ إن أخشابها وحبالها تتلف وتستخدم بقاياها بواسطة المزارعين وقوداً أو في أغراض أخرى.

ونستطيع القول إن الساقية قد تطورت تقنياً في أرض النوبة لتلائم حالتها الطبيعية، وأنها انتشرت على طول أرض النوبة. وأيضاً كانت من الكثرة بحيث تعول مجتمعاً عالي الكثافة، وإن استعمالها ظل موصولاً بغير توقف. وتعدُّ الساقية ثورة بالنسبة للأشكال البسيطة من الرافعات التي سبقتها، فهي لا تعتمد على الجهد البشري، وتروي مساحات واسعة. وهي عبارة عن ماكينة ذات تروس، وتصنع من الخشب، كما تربط بالجلود والحبال التي تصنع غالباً من سعف النخيل. وتتكون من ترسين الأول أفقي والآخر عمودي أو رأسي، ويقوم الترس الأفقي بدفع الترس العمودي، ويدار الترس الأفقي بواسطة قوة الحيوان. وهنالك ترس آخر في وضع رأسي أو عمودي وهو يسمى بدولاب الماء، وتربط فيه الأواني التي تحمل الماء، وهو أكبر التروس. وهذه الأواني إما من الفخار وتسمى القواديس وإما تصنع من الجلد وتسمى الدلاء (جمع دلو). وتربط هذه الأواني إلى دولاب الماء بالجلود أو الحبال. أما القوة التي تحرك الساقية فهي من الحيوانات، وعادة باستخدام الأبقار. وتبدأ الحيوانات في الحركة (وهي دائرية) وينتج عن هذه الحركة تحريك الترس الأفقي والمتصلة به بواسطة قطعة خشبية ويتحرك هذا الترس بدوره، ويقوم بتحريك الترس الرأسي أو العمودي الذي بدوره يحرك دولاب الماء، والذي يكون واقفاً عند طرف مصدر الماء؛ فتنزل الأواني لتمتلئ بالماء، وتعود لتفرغه في الجدول المقام لذلك بعد تمام الدورة.

ولا تختلف الساقية في منطقة المحس عن الوصف السابق الذي أوردناه، عدا وجود اختلافات بسيطة مثل أجزاء الساقية وتسمياتها وبعض الوظائف المتعلقة بها، فنجد مثلاً (الدِّيْو) والذي يقوم بحفظ توازن محور الترس الكبير. والدولاب والذي يسمى (سُقدي – فاشوق)، والمترة وهو البئر الذي يوفر الماء أسفل الدولاب، ومقطع الكوريق، وهو طريق سير الأبقار أثناء دورانها، (والآجن) وهو الرباط أو الجلد المستعمل في الساقية، والترسان الصغير والكبير يسميان ب(أرقدي)، أما الصغيرة لوحدها فتسمى (أرقدينتود)، و(المُقْدوُق) وهو العمود الذي فيه القادوس، أما الخشبة التي توضع على عنق الدابة أو البقرة فتسمى ب(إسلانقي)، و(التكم) وهي عارضة خشبية تساعد في دوران الساقية، والقادوس يسمى ب(السبلوقة) أو(الفشي)، ونجد (الطوريق) وهو طرف محور أفقي يثبت عليه الترس الصغير، أما السائق والذي يقود الساقية (الدابة) فيسمى ب(أورتي). والمهندس الذي يقوم بعمليات التصليح والصيانة ب(مانجنيتود) (النظر) أو البصير، أما (الصمد) فهو الذي يقوم بالإشراف على الساقية، ونجد كذلك لفظة (الدقنتي) وهو الدولاب، والتروس تسمى ب(سلقدي)، ونجد (السابلو) وهو الحوض الذي تصب فيه الساقية مياهها. وساقية النوبة ثلاثة أنواع: الصغيرة تسمى (كلوسود) والمتوسطة وتسمى (أسكلي) والكبيرة تسمى (بوب قريدي) (عبد الله عبد الرسول، 2003م، مقابلة شخصية).

وهنالك أشياء مرتبطة بالساقية، مثلاً البئر والنفق، وهم يحفران معاً في زمن الفيضان، حيث نجد مهمة البئر هي تخزين الماء أسفل الدولاب للرفع، ومهمة النفق هي توصيل هذا الماء إلى البئر بشكل منتظم.

غير أن النفق يكون واسعاً في البداية، وكلما انحسر الماء زاد عمق البئر وطوله. كما يتم تنظيف البئر من طمي الفيضان الذي قد يترسب في النفق وفي قعر البئر ويسمى بالنفير أو الفزعة (على عثمان، 2003م، مقابلة شخصية).

لوحة رقم (1): منظر عام للساقية (تصوير الباحث)

المساحة التي يتم ريها بواسطة الساقية:

من الأشياء الملاحظة في الساقية هي المساحة المزروعة، حيث تتوقف على عدة أشياء أو أمور، وكل منها يقوم بري مساحة محددة على حسب حجمها ومساحتها، إلى جانب كذلك عدد الأبقار التي تقوم بعملية دوران الساقية وعدد المزارعين كذلك، ودرجة استعدادهم. وهنالك أمر آخر مهم جداً وهو عملية ارتفاع النيل وانخفاضه، فإذا كانت الساقية مرتفعة عن منسوب النيل تكون المساحة المزروعة أقل، بينما تزداد المساحة إذا كان المنسوب منخفضاً. وبالتالي نجد أن كبر المساحة المزروعة في فصل الدميرة عن المساحة المزروعة في فصل الصيف. كما أن سواقي الأراضي المنخفضة تزرع أكثر من سواقي الأراضي العالية. وأرض الساقية تقسم إلى أقسام رئيسية على حسب طبيعة الأرض ومساحتها، وتسمى (متى) وكل قسم يصله الماء عن طريق جدول كبير يسمى (مرْتِي)، وهذا القسم يقسم إلى مساحات أصغر تسمى الواحدة منها (القطعة) (الميري) وهذا الميري يقسم إلى صفوف ويسمى الصف ب(أقمة). والأقمة تقسم إلى أحواض طولها في المتوسط (3 × 4م) وتسمى (فا). كما نجد هنالك ما يعرف ب (التُّدان) وهو نصف الساقية، حيث يتم تقسيم الساقية إلى نصفين (اثنين) – نظام الاشتراك في الساقية للزراعة- ويكون الاشتراك مثلاً بالأبقار، حيث لكل واحدٍ منهما

بقرة (المشتركان) كذلك يكون التقسيم ببقرتين (لكل واحد بقرتان)، والرباعي أيضاً حيث تقسم الساقية إلى أربع وهكذا.

وطريقة ري الساقية تتم بالتناوب – أو نظام الوردية - حيث نجد ما يعرف ب(تتي) وهو الزمن المحدد لتناوب الأبقار على الساقية لري الأرض، حيث يقسم اليوم إلى قسمين أو (ورديتين)، صباحي وآخر مسائي. وكل فترة تحدد أو مقدارها 12 ساعة. الفترة الصباحية تبدأ من نصف الليل، وهم يعرفون ذلك بالنجوم والاسترشاد بها، والمسائية تبدأ من منتصف النهار. ويعرفون ذلك بوصول الظل لحدٍ معين، فمثلاً يقومون بتثبيت حجر (أو أي شيء) بشكل عمودي، ثم يثبتون وتداً في الجهة الشرقية (شروق الشمس) على بعد عدة أمتار، فإذا بلغ ظل الحجر حد الوتد يكون الزمن المحدد قد حان (هذا نهاراً أما ليلاً فكما ذكرنا بالاسترشاد بالنجوم ويسمى "تريا أو تُلْكر").

لوحة رقم (2): الساقية ومساحة ريها (تصوير الباحث)

كما نجد تقسيم الدورة الزراعية إلى ثلاثة مواسم، هي موسم الدميرة والموسم الشتوي والموسم الصيفي. ولكل موسم أنواع من المزروعات، كما أن لكل موسم ظروفه، وأهم هذه المواسم الشتوي، حيث أوسع رقعة ومساحة من المواسم الأخرى ذلك لرطوبة الجو التي تقلل من كمية التبخر، ثم أن محصولاته متنوعة وكثيرة، وتأتي بعائد طيب من حيث الكمية والسعر، وأهم محصولاته القمح والشعير والبقوليات. أما موسم الدميرة فيزرعون الذرة والهمبر واللوبيا والبامية وغيرها. وفي موسم الصيف فكثير من المزارعين لا يقوم بالزراعة فيه. أما بالنسبة لمقاييس الأرض المستعملة، فنجد ما يعرف بالسين والطاء. حيث ترمز السين للسهم والطاء للقيراط. والسهم الواحد يساوي 7 أمتار و29 سم. والقيراط الواحد يساوي 24 سهماً ويساوي

175 متراً مربعاً. أما الفدان فيساوي 420 متراً ويساوي 24 قيراطاً. إلى جانب الدراع (كيو) أيضاً من القياسات المستعملة. أما الكيل فإن المنطقة تستعمل المرج أو (الطاسان)، والمر والماشية والقيراط، والقيراط يساوي 8 كرج (طاسة). والقيراط يساوي ماشيه والمر (مورية) يساوي 12 قيراطاً. ويمكن ترتيب المكاييل على النحو الآتي: كرج – ماشيه (كنتي) – مر – دكي (علي عثمان، مقابلة شخصية، 2003م).

الحفير الكبير:

ذكر الرحالة التركي ايفليا شلبي منطقة الحفير الكبير التي وصلها بعد رحلته من منطقة نارنارتي، حيث زار منطقة المحس عام 1671-1672م، وذكر أنه مر من سيسة غرب دلقو إلى قلعة (Naznarinte) أي نارنارتي، التي تبعد من سيسة بحوالي 56 ميل أو ثلاثة أيام مشياً على الأقدام. وأن هذه القلعة كان بها خمسمائة جندي تحت قيادة (خان كعدان). ثم يواصل شلبي حديثه عن رحلته، فيقول إنه سافر من تلك القلعة التي وصلها من (سيسة) إلى عاصمة ملك المحس الذي كان يسمى (كور حسين) في منطقة (الحفير الكبير) ووجد حاكم القلعة في هذه المنطقة كان يسمى (دائم الدين) وعدد جنود حاميته سبعمائة رجل. وأن عدد سكان المنطقة من الرجال كان خمسين ألف رجل، كما كان عددهم كذلك في منطقة (تنري)، وإن عدد المساكن قليلة جداً ما عدا القلاع (Çelebi. 1896). من الملاحظ جلياً غموض هذا الوصف الذي يقدمه الرحالة شلبي، لكن قام علي عثمان بمحاولة تفسير منطقة الحفير الكبير حيث إن معظم المناطق الأخرى كانت واضحة مثل نوري، نارنارتي، وغيرها. أما الحفير الكبير ومن خلال الروايات الشخصية والدلائل اللغوية والتي تشير إلى أن منطقة مشكيلة الحالية كانت تسمى (حفير –ن-كل)، وقد قام بتسجيل عدة روايات حيث ذكر أن منطقة (كوش-ن-اركي) الحلة القديمة، كانت تسمى (حفير-ن-كل) أي حفير –حفرة. أي (حفير) لأنه مشهور في اللغة النوبية بأن الاسم العربي إن كان مستعملاً يلحق به المقابل النوبي مباشرة. وقد ذهب لتسمية (كوش-ن-اركي) بهذه الصفة ومع أن الحال واضح حيث إن الحلة القديمة فعلاً بنيت في حفرة، حفير، كان يحد من ناحية النيل بردمية كبيرة ما زالت بقاياها إلى الآن ظاهرة. كما نجد أن بعض الرواة ذكروا أن (حفيرن-كل) كانت تعني كل المنطقة الممتدة من سبو-كجبار إلى حبراب-تولي أو المنطقة التي تعرف الآن بمشكيلة.

على ذلك استطاع علي عثمان ومن خلال موسم 2003م لمشروع المحس (الخامس) أن يبحث عن معنى هذا الاسم (مشكيلة)، حيث أوضح أن مشكيلة مكونة من مقطعين (مش+كيل = مش+كل= مش+كل (بمعنى حفير)، إذا تم مقارنة (مش + حفير مع حفير-مشو الحالية في منطقة دنقلا) تستطيع أن تقول إن مشكيلة هي أصلاً مشو-حفير كما حفير-مشو الحالية، ولو عرفنا معنى حفير في الاسمين والتي تعني بالنوبية (كل) فإن كلمة مشو مازالت غير واضحة. كما أن هنالك قول إن مشو هي مسو بمعنى طيب، أيضاً بمعنى كبير في النوبية الوسطى، وأن تقول أن السين انقلبت شيناً في النطق وهذا احتمال وارد وواقع كبير أو أن تقول أن

مشي هي بمعنى كبير من التعبير الشائع (إنت قدر المشي) والمشي جزء من الساقية كبير وضخم وطويل وهذا معروف. فالرجل الضخم الطويل يوصف عندنا الآن (هي مشي كلي). وهكذا تصبح:

حفير مشو

مشو حفير = مشكيلة

وتعني حفير كبير كما ورد في كتاب الرحالة ايفليا شلبي أعلاه وهكذا:

مشكيلة = مشو (كبير) + كل (حفير) = مشكيلة = حفير كبير. (علي عثمان، مقابلة شخصية، 2018).

عليه هذه هي منطقة (الحفير الكبير) التي لها سمات جغرافية رئيسية تتصف بها، وهي أن النيل يجري بها من الغرب إلى الشرق، كما أنها منطقة شلالات مبعثرة وجزر متعددة إضافة إلى أن بها أراضي زراعية ممتدة. وهذه سمات تعني الكثير في تحديد طبيعة المنطقة وطبيعة سكانها، وتبعاً لذلك تاريخها. ونلاحظ أولاً أن أسماء قواد الحاميات أو القلاع أسماء تركية وهم يحملون اللقب التركي (خان) وهي تعني حاكم عسكري.

الحفير الكبير وأهميته:

يعدُّ الحفير الكبير واحدا من المناطق المهمة، والتي تقع دائماً على النيل أو بالقرب منه، وهو المنطقة التي يوجد بها المؤن والغذاء من ذرة وقمح وغيرها. حيث تعدُّ الصومعة الرئيسية للحكومة، وهي الآن ما تعرف بالمطامير (مكان تجمع الغلال). وقد أطلق الفونجيون هذا اللقب (الحفير الكبير) على مكان تجمع الجيوش العثمانية. كما نجد اسم (الشونة) وهو الحفير في لغة العبدلاب وهي نوعان:

النوع الأول: على شكل بناية مثل التي وجدت في قرية كباجة بمنطقة المحس، والتي استمرت حتى الأربعينيات من القرن الماضي.

النوع الثاني: وهو من النوع الذي يدفن، وهو الأهم حيث وجدت مثل هذا النوع في جزيرة سمت في فيل بالقرب من دفي شقل حيث معسكر الجيش العثماني.

والمهم في الأمر أن كل المخطوطات تؤكد أنه منذ العصور الوسطى نجد أن مسؤول الشونة هو قائد الجيش، هذا يؤكد مدى أهمية هذه الشونة ومدى حرص الحكومة عليها. ونجد كذلك عند احتلال دولة لمكان ما، أهم شيء عندها يكون تأمين مكان الحفير حيث يوضع الجيش فيه، ثم بعد ذلك يتم انطلاقهم للحروبات.

كما أنها المنطقة الأهم والتي توجد بها المدافن، الإدارة، السكن. . الخ. والجدير بالذكر أن مسؤول الغلال كان يسمى (Sponge) سونق، والآن أصبح معروفا ب(سند).

الاقتصاد الزراعي في الفترة العثمانية (المحس):

بعد دخول العثمانيين لمنطقة المحس قاموا بعدة إجراءات للاستفادة من الأراضي الزراعية الخصبة التي تتميز بها المنطقة منها:

أولاً: زيادة الأراضي الزراعية وتوسيعها.

ثانياً: زيادة عدد السواقي حتى تفي بمتطلبات ري المساحات التي قاموا بزيادتها، وقد تلاحظ هذا من خلال وجود ساقية في كل حلة (إركي) خاصة في منطقة الحفير الكبير (ساقية حاجينكي، ساقية أورلكي، ساقية همبون الخ.)

ثالثاً: قاموا بعدة إصلاحات في السواقي مثل زيادة حجمها وجعلها في مستوى أعلى مما كانت عليه سابقاً وغيرها من التحسينات، كل ذلك لتلائم وتصلح لري المساحات الكبيرة المخصصة لها.

رابعاً: زيادة أحجام الجداول الخاصة بالسواقي وبناؤها من الحجر وارتفاعها لمستويات أعلى حيث يصل الجدول في بعض السواقي إلى ارتفاع أكثر من ثلاثة أمتار، كل ذلك لتوصيل المياه ونقلها إلى أبعد مساحة ممكنة مثل الجدول الخاص بساقية (حاجينكي) في منطقة الحفير الكبير، والتي يصل طولها إلى أكثر من ثمانمائة متر. إضافة إلى تحمل الجدول لقوة اندفاع المياه الشديدة.

خامساً: كما قاموا بزراعة وإدخال محاصيل زراعية أخرى في المنطقة، حيث نجد القمح والشعير والذرة الشامية والبقوليات (بسلة، فاصوليا) والبصل والموز، والبطيخ والقطن والخضروات.

علي كلٍ، نلاحظ أن كل التقنيات التي قام العثمانيون بإدخالها في المنطقة تهدف إلى زيادة المساحة المزروعة التي تؤدي إلى زيادة في الإنتاج الزراعي وتطوره (علي عثمان، 2003م، 35).

السواقي في منطقة الحفير الكبير:

تعدُّ منطقة الحفير الكبير واحدة من أوسع المناطق السهلية في منطقة المحس و وأغناها، حيث نجد المنطقة السهلية الزراعية على جانبي النيل ضيقة إلى حد كبير، خاصة المنطقة بين تمبس وحتى نهاية قرية

سيدة، ثم تبدأ المنطقة السهلية في الاتساع حتى تصل أقصاها في منطقة نوري مشكيلة وفريق (يمين النيل) وتتميز أراضيها بالخصوبة وصلاحية الزراعة. الجدير بالذكر أنه ومنذ 2000ق. م تتحدث المصادر عن أهمية المنطقة في مصادر الغلال (Osman, 1978).

1/ ساقية نوري (ساقية رقم 6): N 19 56 296 E 30 20 238

من أكبر السواقي مساحةً حيث تبلغ مساحتها حوالي 18 فدانا. وهي الساقية الوحيدة الموجودة أجزاء منها حتى الآن (شكل رقم 1). (انظر صورة رقم 1). وجدول الساقية القديم يتكون من الحجارة والطين من بداية الجدول بالقرب من الساقية، ثم بعد ذلك يتكون من الطين فقط، والجدول هذا طويل جداً حوالي ألف متر مما يؤكد على كبر المساحة التي يرويها، وهو يقوم بتقسيم المساحة بين الجبلين. ويصل قطر المترة إلى حوالي 6 أمتار.

لوحة رقم (3) منظر عام للجدول من الحجارة (تصوير الباحث)

والجدير بالملاحظة أن هذا الجدول يمر حتى يقطع طريق العربات مخترقاً القرية ليقوم بري بعض الجنائن المقامة هناك قديماً. وجزء كبير من هذا الجدول مازال مستخدماً حتى الآن لري المحاصيل الزراعية بالطلمبات الحديثة الآن. كما أن هنالك جدولا كبيرا آخر يمر بجبل نوري آتياً من قرية مشكيلة وهو الجدول الرئيسي الآن، والذي يقوم بري المساحة المزروعة حالياً. ونجد أن الساقية مقامة على أرض مرتفعة مخصصة مبنية من الحجارة زائداً الطين، وذلك لزيادة قوتها وتماسكها وتوازنها، كما يقومون بزراعة القمح والنخيل إلى

جانب الخضروات والأعلاف (الذرة – البرسيم).

2/ ساقية حاجينكي (مشكيلة) ساقية رقم 16: N 19 56 262 E 30 27 219

من أهم السواقي الموجودة بالمنطقة وأكبرها، حيث يبلغ قطر المترة حوالي 8 أمتار. لا توجد أجزاء من الساقية الأصلية القديمة، حيث ظهرت الطلمبات الحديثة بدلها للري. لكن نجد أجزاء الجداول الخاصة بالساقية القديمة لازالت باقية حتى الآن، ومستعملة بواسطة الطلمبات الحديثة في الري. ومساحة الساقية حوالي 16 فدانا، ونلاحظ في نهاية الجدول القديم أنه تم استغلال الأحواض القديمة للزراعة باستعمال الجدول القديم، وإنشاء أحواض وطلمبة أخرى جديدة، وقد تم استخدام حجارة الجدول القديم لإنشاء الجدول الجديد، والجدول ينصف المساحة نصفين، وهو مبني من الحجارة والطين، ويلاحظ بأن بناء الجدول من الحجارة أو إدخال الحجارة في البناء من عادات العثمانيين في المنطقة. طول الجدول الكلي حوالي 65 متراً، وهو غير متساوٍ الارتفاعات، حيث نجد أعلى ارتفاع له حوالي 3 و5 أمتار متدرجاً على بعد 30 مترا حوالي 3 و2 متر، وعلى بعد 40 مترا نجد الارتفاع قل إلى 1 و2 متر، وعلى بعد 45 مترا وحتى نهاية الجدول حوالي 0،65 متر فقط، وهذا ليساعد في عملية انسياب الماء بسهولة لكل المساحة المزروعة. عرض الجدول حوالي 15و1 متر من الأسفل أما في أعلى الجدول حيث الطين فقط بعرض45، 0 متر (من أسفل إلى أعلى) –ارتفاع الطين هذا من الحجارة بـ 0،30 متر. ويزرعون القمح، الذرة، النخيل، الفول المصري، الخضروات، وأبو سبعين ،والبرسيم وغيرها.

لوحة رقم (4) جدول الساقية من الطين (تصوير الباحث)

3/ ساقية أدولكي: ساقية رقم 17:

تعدُّ أيضاً من السواقي المهمة في المنطقة، ولا توجد أجزاء الساقية الأصلية، حيث استبدلت بطلمبات جديدة. وتبلغ مساحتها 8 أفدنة، ويزرع بها القمح والفول المصري، والخضروات والبرسيم وغيرها. بني الجدول من الحجارة والطين، وقد كان طوله حوالي 90 متراً. وقد أعيد استخدام حجارة الجدول القديم في الجديد الذي يستمر حتى نهاية المساحة المزروعة. أعلى ارتفاع للجدول عند نقطة البداية بـ 2 ،85 متر متدرجاً حتى الوسط بارتفاع 2،40 متر ثم النهاية بحوالي 1 ،20 متر. ونجد كذلك اختلافاً في عرض الجدول، حيث في الأسفل 1،70 متر، ثم الوسط 1 متر، وأخيراً الأعلى بـ 0،55 متر فقط، أما قطر المترة فحوالي 6 أمتار.

4/ ساقية قندي (فريق) ساقية رقم 7: N 19 56 174 E 30 29 669

من السواقي المهمة في منطقة (فريق). ومثل سابقاتها فلم يتم العثور على أجزاء الساقية القديمة. والجدول مبني من الطين فقط، وطوله حوالي 125 متراً تقريباً ونجد ارتفاعه من الأول (بالقرب من المترة) حوالي 1،80 متر وفي الوسط 1،50 متر. وفي النهاية حوالي 0،56 متر. وقطر المترة غير واضح، إلا أن عرض الجدول من الأسفل 3،70 متر. ومن الأعلى 0،69 متر. مساحتها حوالي (10) أفدنة ويزرع بها النخيل والفول المصري، والذرة والخضروات والبرسيم.

5/ ساقية حلسابكي (فريق) ساقية رقم 8:

وهي الساقية المجاورة لساقية قندي وهي عبارة عن ساقيتين، الأولى من النيل وحتى بداية الساقية الأخرى. والجدول مبني من الطين فقط، والمترة غير واضحة. أما طول الجدول فيبلغ حوالي 115 متراً، وارتفاعها من المترة أو بداية الجدول حوالي 2،60 متر متدرجاً إلى الوسط بارتفاع 2،70 متر. وفي نهاية الجدول بارتفاع 1،20، أما عرض الجدول 0،57 متر، أما البعد بين ساقية حلسابكي وتندي حوالي 200 متر. وتبلغ مساحتها حوالي (9) أفدنة ويزرع بها النخيل والفول المصري، والذرة والخضروات وغيرها.

6/ ساقية أرونكي ساقية رقم 9 :

وهي الساقية الثالثة في منطقة فريق، وهي مجاورة لساقية حلسابكي وهي أصغر مساحة، إذ تبلغ مساحتها الكلية حوالي (7) أفدنة. والجدول مبني من الطين فقط، حيث كان مثل الجداول الأخرى، ولكن مع مرور الزمن تهدم وتكسر حيث بلغ طوله حوالي 22 مترا فقط والمترة غير واضحة. أما ارتفاع الجدول بالقرب

من المترة حوالي 2،90 متر، أما الوسط 2،30 و متر وفي النهاية 1،70 متر. أما عرض الجدول من أعلى 0،50 متر. هذه الساقية جزئياً مهملة حيث تنبت الأشجار الشوكية، والمساحة المزروعة بها تنتج محاصيل القمح، النخيل، البرسيم، الخضروات أبو سبعين (علف الحيوانات).

التجارة:

ظلت منطقة وادي النيل منذ عصور مبكرة ذات حركة تجارية دائمة، ذلك نتيجة لتوفر عدة عوامل أدت إلى نموها وازدهارها حيث نجد الموقع الجغرافي لهذه المنطقة والتي تطل عن طريق مصر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أما شرقاً فتطل على البحر الأحمر، وهذان البحران يشكلان طريقين قديمين للتجارة النشطة بين سواحلها.

كان الساحل الغربي للبحر الأحمر منفذاً تجارياً مهماً عن طريق المدن الساحلية، والموانئ المطلة عليه مثل عيذاب وسواكن. كما نجد الجزيرة العربية التي تطل غرباً على البحر الأحمر، ومن ناحية الشرق نجد الخليج العربي مما جعلها طريقاً مهماً ومفضلاً للتجارة الشرقية. إضافة إلى احتراف سكان المنطقة عامة والجزيرة العربية بصورة خاصة التجارة منذ أمد بعيد، حيث عرف كثير من الممالك والدول التي حولهم بسبب هذه التجارة. تزخر بلاد النوبة وبلاد البجة في الشرق بموارد حيوانية، ونباتية ومعدنية وغيرها. وقد قامت في هذه المنطقة (الجزيرة العربية ووادي النيل) الكثير من الحضارات احتاجت لهذه الموارد ووصلت إلى مناطق موغلة في القارة الإفريقية ووثقوا صلاتهم بسواحل الصومال وإرتريا وشبه الجزيرة العربية وصار لها عبر البحر الأحمر ممرها الذي تنطلق فيه قوافلها باتجاه الجنوب بالإضافة إلى العديد من الطرق والدروب الآمنة بين مصر وبلاد النوبة.

الطرق الشهيرة:

من أشهر الطرق والممرات العديدة البرية التي تحكمت في حركة التجارة في المنطقة، هي الطريق الصحراوي الذي يربط بين واحات مصر الغربية وعبر درب الأربعين جنوباً إلى بلاد النوبة. وطريق القوافل من بلاد المغرب الأقصى وجنوب الشمال الأفريقي (تونس) عبر بلاد النوبة غرب بحيرة تشاد إلى دارفور فبلاد النوبة. وهناك طريق من شبه الجزيرة العربية إلى سيناء عبر الصحراء الشرقية إلى النيل ثم يتجه إلى بلاد النوبة. والطريق التجاري من البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى أواسط أفريقيا، وكانت البضائع تنقل من البحر الأبيض المتوسط إلى الفسطاط عبر النيل، ومنها إلى أسوان ثم إلى بلاد النوبة.

هذا وقد أدت الحركة الواسعة من التجارة إلى شهرة عدد من الطرق والمسالك في بلاد النوبة منها:

طريق ينحدر من أسوان باتجاه الجنوب الشرقي عبر البجة إلى ساحل البحر الأحمر. وهذا الطريق صعب المسلك لجفافه وقلة مياهه وفقر مراعيه. وهنالك طريق آخر يتبع مجرى النهر إلى دنقلا. وطريق يتفرع من دنقلا ويتجه غرباً عن طريق وادي القعب ثم يتفرع نحو المناطق المحيطة به. وطريق آخر يبدأ من كورتي على طول وادي المقدم، وعبر الدبة على طول وادي الملك إلى كردفان. ومن كردفان يتفرع منه طريق إلى دارفور ثم إلى برنو ثم إلى بلاد الهوسا بغرب أفريقيا. وكذلك طريق ينحدر من أبو حمد شمالاً باتجاه الجنوب ويصل حتى التقاء نهر عطبرة بنهر النيل ويمضي حتى التقاء النيلين الأبيض والأزرق (انظر خريطة رقم 2).

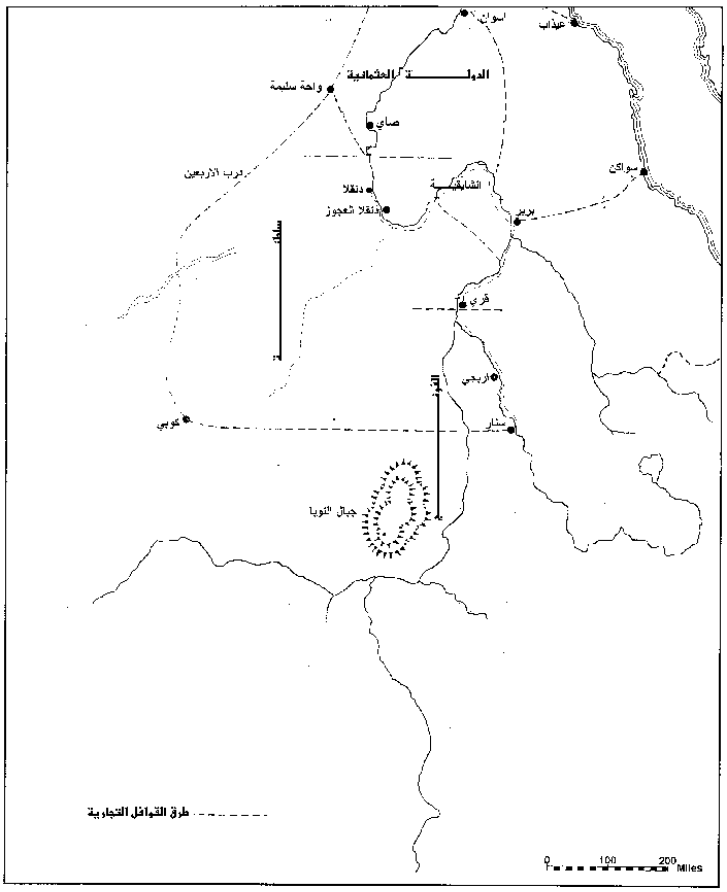

خريطة رقم (2): الطرق التجارية الرئيسية في النوبة (بإذن من: أحمد حسين 2004)

وقد كانت هذه الطرق والمسالك تربط بين أهم المدن والمراكز التجارية الكبرى في المنطقة بدءاً بأسوان في الشمال، وعيذاب في الشرق، ودنقلا في الوسط، ومدينة سوبا في الجنوب، إلا أنها عرضة للكثير من الأخطار أحياناً ذلك بسبب قلة الماء والكلأ وعرضة بعض القوافل إلى التضليل. وبالرغم من هذه المخاطر

إلا أن بعض القوافل فضلت هذه الطرق والمسالك لقصرها مثلاً.

ازدهار حركة التجارة:

انعكست تلك الحالة على حركة التجارة والاقتصاد في المنطقة ككل، وقد مثلت بلاد النوبة الشمالية بحكم موقعها المهم والوسط بين مصر ودولة علوة ومناطق البحر الأحمر وكردفان ودارفور حلقة وصل مهمة في مجال التجارة؛ مما أنعش اقتصادها وتجارتها ووسع من صلاتها الخارجية.

وبعد توقيع معاهدة البقط الشهيرة ازدهرت التجارة كثيراً واستتب الأمن نتيجة للشروط التي وضعت، وحتى عند التراخي في هذه الاتفاقية نجد السلطات المصرية ترسل حملاتها إلى النوبة حتى يتم إرجاع المعاهدة، وهذا يؤدي إلى استتباب الأمن والطرق وتأمينها.

التجارة النيلية:

تعدُّ من أهم الأنشطة الاقتصادية عند النوبيين، إذ كانت تجارة النوبة تتدفق من الجنوب للشمال، ويقوم بها عدد من التجار يملكون المراكب الكبيرة وقاعدتهم هي منطقة دنقلا. وينقسمون إلى مجموعتين: مجموعة تسيطر على هذه التجارة من الشمال والأخرى من الجنوب. وفي الشمال نجد أن منطقة الحدود مع مصر شهدت حركة تجارية مكثفة، حيث كان التجار يسلكون طريق النيل بالمراكب حتى منطقة الشلالات، فإذا وصلت هذه المراكب تلك المنطقة الصعبة تحولوا من بطون المراكب إلى ظهور الجمال وساروا حتى مدينة أسوان.

وقد كانت هذه المراكب تحمل مختلف أنواع السلع القادمة من الجنوب إلى مصر، حيث كانت تأتيها منتجات كردفان، وصادرات الحبشة وغيرها من تجارة أهل السودان التي من أهمها العاج وسن الفيل وريش النعام والصمغ والبلح والتمر الهندي (العرديب) والخرتيت وجلود البقر والذهب السناري والأبنوس والنعام الحي والببغاء والعسل والشمع، ونجد الرقيق الذي يعدُّ من أهم سلع هذه التجارة.

كذلك كان هؤلاء التجار النوبيون يرجعون منها وقد حملوا أو جلبوا معهم كثيراً من المنتجات المصرية التي تأتي إلى مصر عبر البحر الأبيض المتوسط خاصة الشعير والقمح، والبقول والفواكه والصابون وغيرها من المنتوجات المصرية، وبعض السلع التي لا تنتج في مصر وترد إليها عن طريق القوافل التجارية من الشام والعراق، إضافة إلى الذهب والزمرد.

وقد كانت حركة المجموعتين منسقة زمنياً حتى تتقابل المجموعتان في دنقلا وتتبادلان البضائع

خلال الصيف. وهم يخططون للرحلة القادمة على أن تبدأ رحلتهم بعد حصاد البلح حيث كان العامل الرئيسي لهذا التزامن، ويتزامن هذا بدوره مع ارتفاع النيل في الشلالات، لذا نجد أن شهر أغسطس تكون المراكب في طريقها إلى كل من الجنوب والشمال.

تجارة الرقيق:

كانت تجارة الرقيق من أهم أنواع التجارة، حيث كان يصدر الرقيق من بلاد النوبة إلى مناطق مصر وبلاد الحجاز وغيرها. هذا إلى جانب الرق الذي كان مقرراً على النوبة إثر معاهدة البقط الشهيرة والتي كان مقرراً لها ثلاثمائة وستون عبداً سنوياً.

وقد كان الرقيق يستخدم في عدة مجالات أهمها الجيش وذلك من خلال الشهرة بمعرفتهم للحروبات ولقوتهم وبأسهم وتحملهم الصعاب، إضافة إلى مجالات أخرى عديدة، أما الجاريات فيستخدمن في تربية أبناء الملوك إلى جانب مجالات أخرى. وكان يجلب الرقيق أثناء الغزوات على القبائل ومن الأقطار المجاورة.

ويذكر أن ثمن الجارية النوبية في مصر كان حوالي ثلاثمائة دينار وأقل من ذلك بكثير. أما العبد فيختلف سعره ففي المحس يساوي من 25- 30 دولاراً إسبانيا، ويباع الرقيق في القاهرة بربح يبلغ 150% (بروكهاردت، 55). وقد أشار د. شبيكة بأنهم لم يكونوا كلهم من سكان بلاد النوبة، بل يحتمل أن جلب بعضهم من الأراضي التي تقع في أواسط السودان على أنهم رقيق بواسطة تجار الرقيق (شبيكة، 1965م، 125).

يتضح من ذلك أن حجم تجارة الرقيق كان كبيراً هذا بالإضافة إلى الأسرى في الحملات مثل الحملة المملوكية الأولى على ملك دنقلا، والتي وصفها المؤرخ النويري والذي أحضر منها إلى مصر من الرقيق سبعمائة رأس حتى يبيع كل رأس رقيق بثلاثة دراهم، والذي بقي من القتل والبيع جاء عددهم عشرة آلاف نفر. أي أن حجم القوى البشرية التي كانت تستنزف من بلاد النوبة كان كبيراً وضخماً(تاج السر،2003م، 45).

العملة:

أما بالنسبة للعملات فلم تكن هنالك عملة متداولة أو معروفة للنوبيين إلا في منطقة مريس، حيث كان يتعامل المسلمون معهم بالدينار والدرهم. أما في الجنوب فكان يتم التبادل عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشي والجمال والحديد والحبوب (مسعد، 1960م، 103). وذكر (بروكهاردت، 1959م، 34) بأن الريال هو العملة المتداولة في السلع الغالية، أما في الصفقات الصغيرة فالمد أو كيل الذرة.

الأسواق التجارية:

من الطبيعي وجود سوق تجاري عام في كل بلدة، ويفتح هذا السوق في يوم معين من أيام الأسبوع. حيث يجتمع التجار ويقومون بعرض ما لديهم من سلع محلية أو مستوردة من الخارج، وشراء ما يحتاجون إليه. حيث نجد من السلع المستوردة الدبلان الأبيض والمصبوغ والصوف لصنع حواشي المنسوجات والحرير والقيطان والصفيح والزجاج والمرجان والفناجيل والكحول والأقراط والمرايا، والريال النمساوي والعطور وغيرها. والبخور من الهند والمحلب الإسلامبولي وجلود الماعز وارد الأناضول، تستعمله الخاصة فراء لحميرهم وجمالهم، وسبح الصدف من الفرس وسبح الكوك من الأستانة أو سبح اليسر من جدة والطرابيش الإسلامبولية وغيرها، ومن مصر المسمار البلدي اللازم لبناء المراكب والسواقي وغيرها.

أما السلع المحلية فنجد الأزيار والفخار من كافة الأنواع وأدوات الطبخ ومختلف أنواع الأخشاب العادية والمشغولة في شكل أسرة وعناقريب وسروج وأدوات الطقوس والأشياء المصنوعة من الصوف والسيطان والبخس المزينة وأنواع من البهارات والتوابل. ولا تخضع هذه البضائع للمقايضة لأسعار معينة، وإنما يتم الاتفاق على السعر المناسب بين البائع والمشترى. ونجد أن البلح يستخدم في الغالب الأعم للتبادل، ولا يزال هو المحصول البقولي الأول في النوبة.

الصناعات الحرفية:

نتيجة للتطور الملحوظ في الإنتاج الزراعي والتجاري تطورت الصناعة الحرفية، والتي رفعت من مقومات الاقتصاد وزادت من أهميته. كان أهل النوبة يستخرجون الحديد ويصنعونه، وكان من أهم صناعتهم أدوات القتال (القوس والنشاب) والتي برعوا فيها وأتقنوها، حيث تم تسميتهم من قبل العرب برماة الحدق. . كما أن توفر أشجار النخيل والدوم والحراز وغيرها التي تنبت على شريط النيل من أسوان حتى التقاء النيلين ساعد على إدخال صناعات حرفية كثيرة مارسها الإنسان النوبي مثل صناعة السواقي والمراكب والأدوات الزراعية وغيرها.

عليه يمكن تصنيف الإنتاج الحرفي كالآتي:

1/ النجارة:

وهي من الحرف القديمة جداً، نسبة لتوفر الخشب الذي يدخل في صناعات كثيرة منها الأدوات الزراعية والمراكب والسواقي وصناعة العناقريب والأبواب والشبابيك والأدوات الجنائزية وسيقان السهام والحراب.

وفي منطقة المحس (إقليم الشلال الثالث) نجد الكثير من الأسر الكبيرة والقديمة كانت تمارس هذه الحرفة، حيث نجد في منطقة أردوان أسرة تعرف ب (بقاسنجي) أو أسرة بقاس - جاء هذا الاسم أصلاً من رجل يدعى فضل محمد إدريس - قام بعمل مضيفة في المسجد لاستقبال الضيوف وكني من تلك اللحظة بهذا الاسم وهي أسرة متجولة حول المنطقة. وهنالك صناع آخرون في مناطق المحس حيث نجد في كوكا وملجاب وأكد وغيرها من عائلات بقاس، كذلك في مناطق أخرى في المنطقة مثل سمت ونارنارتي وتنري ونوري وغيرها، وكانوا يقومون بصناعة كل الأدوات الخشبية، وكانت تتم هذه الصناعات على حسب الطلبات.

أما المراكب فتصنع من أخشاب السنط وهي ثلاثة أنواع: النقورة (من نقر) وهي أكبرها ويستخدمونها لنقل الغلال والبضائع، والمعديات وهي أصغرها، والقياسات (من قياسة) وهي وسط بين نقورة والمعديات وتستعمل لنقل البضائع عند نزول النيل. ومراكب السودان أضخم وأقوى وأمتن من المراكب المصرية.

2/ الحدادة:

وهي من الحرف القديمة أيضاً، ويقوم الحدادون بصناعة الحراب والسكاكين والفؤوس والأدوات الزراعية مثل المناجل والقدوم وأدوات القتال وغيرها من الأشياء التي تدخل في صناعتها الحديد والسواقي.

واشتهرت أيضاً بعض الأسر بصناعة الحديد حيث نجد الحدادين (تبدي) في منطقة سمت ومشكيلة ودلقو وغيرها. حيث مارسوا هذه المهنة وتوارثوها.

3/ البناء:

نجد أن بناء المنازل من الطين والتي تسقف بالدوم وجريد النخل والبروش ونبات الحلفا (العرش البلدي) وتبيض بالبلاستر (الزبالة + طين). كذلك تبني المنازل من الحجارة. وهنالك من يتخصصون في رص الأحجار لإقامة السدود وغيرها. إضافة إلى البناء بالطوب الأخضر.

4/ الغزل والنسيج:

نجد كذلك النساجين أو القزازين وهم يحيكون نسيجاً ثخيناً من القطن يشبه الخام يسمونه (الدمّور) وهو لباس العامة، ويصنعون كذلك منه نسيجاً رقيقاً ملوناً تلبسه النساء والحياكة خاصة بالرجال أما الغزل فعمل النساء.

ذكر ابن سليم الأسواني أن بدار المحس شيء من زراعة القطن ويعمل منه الثياب. وهم يحيكون من

الصوف الشمائل وصنع النساء العراقي والمناديل المطرزة، وبعد ذلك تعلم النساء التطريز على المنسج بالحرير والقصب. كما ذكر (بروكهاردت) بأن ذراع القماش هي أداة المعاملة وثوب القماش ثلاثون ذراعاً وثمنه ريال (بروكهاردت، 1959م، 35).

5/ صناعة الخزف (الفخار):

مثل الأزيار (أواني حفظ الماء) والقلل والبرام (وهي قدور للطبخ) وقودايس الساقية والقُسّيبات (أواني لحفظ الحبوب الغلال) والأفران البلدية وغيرها. وغالباً ما كانت النساء يقمن بصناعة الأدوات الفخارية. إلى جانب هذه الصناعات نجد صناعة الأطباق وصناعة الحبال والخمور والتعدين والطعام والدباغون والصاغة وغيرهم. ونلاحظ أن كل هذه الصناعات الحرفية ارتبطت بمواد خام كانت موجودة في البيئة المحلية، حيث طوعها الإنسان النوبي العظيم لصناعة أدوات الإنتاج.

الثروة السمكية:

لعب صيد الأسماك دوراً مهماً في اقتصاد النوبة، وقد وصف الإدريسي سكان النوبة أنهم يشربون من مياه النيل، وطعامهم الشعير والذرة والتمر وشرابهم المزر من الذرة واللحوم التي يستعملونها هي لحوم الإبل طرية ومقددة ومطحونة ويطبخونها بألبان النوق، وأما السمك فكثير عندهم (الإدريسي، د. ت، 129). ويدخل السمك في كثير من الوجبات، إلا أنه يمثل أهم وجبة غذائية عند النوبيين وهي الملوحة (التركين). حيث تمثل الطعام الشائع بينهم. ويتم تناول هذا التركين في وجبة الفطور والعشاء، وهو يصنع بعد تنظيف السمك ووضعه في إناء مع إضافة قدر كبير من الملح ويغطي جيداً ويترك تحت حرارة الشمس لمدة أقصاها أسبوع حيث يتحول السمك إلى مادة رمادية غامقة تسمى (التركين) وبهذه الطريقة يمكن أن يخزن (التركين) دون أن يتعفن فترة طويلة. ومن أهم الأسماك التي تدخل في صناعته الدبسة والكجور. ويوجد السمك بكثرة في فصل الصيف، وإضافة إلى أنه يمثل غذاءً رئيسيا ومهماً لمعظم مواطني النوبة إلا أن له أغراضاً أخرى.

النظام الاجتماعي:

1/ النظام الطبقي للمجتمع:

اتفقت جميع الروايات التاريخية على أن المجتمع النوبي كان يتألف من طبقتين أساسيتين:

الطبقة الأولى: وهي الطبقة الحاكمة، وهي التي تشتمل على الأسرة الحاكمة أو المالكة والتي نجد على رأسها الملك الكبير سواء في دنقلا أو سوبا، كما نجد الملوك وهم حكام الأقاليم.

الطبقة الثانية: وهي طبقة العبيد، وهم عامة الشعب النوبي ونجد في الوسط (طبقة وسطى فرعية) بين هاتين الطبقتين قامت فئة الموظفين التي تولى أفرادها مختلف الوظائف الملكية في العاصمة والأقاليم، ولا بد أن عددهم كان محدوداً. ومن الملاحظ أن الطبقة الحاكمة الشاملة للأسرة المالكة وفروعها هي وحدها التي مارست حقوقاً سياسية ودينية (مسعد، 1960م، 90). ولابد أن نشير أن الملك هو صاحب الأرض، ولابد أن طبقة الحكام في الأقاليم كان لهم هذا الحق نفسه، وهم يمثلون الطبقة الأولى.

أما أصحاب الطبقة الثانية، العبيد والشعب فلا أملاك لهم وهم عبيد الملك يعملون في الأرض، كما كانت لهم وظيفة أخرى وهي أنهم يقومون مقام العملة حيث إن العملة ببلاد النوبة لم تعرف إلا في المريس، أما وراءها جنوباً فإن الرقيق يقوم مقام العملة في البيع والشراء. كما نشير إلى فئة الحرفين التي تطورت بتطور الصناعة الحرفية مثل الحدادين والبناءين، والنجارين.... الخ. أيضاً نجد فئة التجار التي كانت تمارس عمليات التجارة في الداخل والخارج وكانت قد بدأت تتطور مع تطور الزراعة والصناعة الحرفية. يمكننا أن نستخلص مما سبق السمات العامة التي تميز نظام الرق في بلاد النوبة على النحو التالي:

1/ نجد أن عامة الشعب كانوا عبيداً لملك النوبة، وهم يعملون في الأرض لصالح سادتهم وملوكهم.
2/ كان الرقيق يصدر إلى الخارج وعنصراً أساسياً من صادرات النوبة في العصور الوسطى.
3/ كان الرقيق يستخدم على أنه عملة أو وسيلة تبادل في البيع والشراء.
4/ كان الرقيق في اتفاقية البقط التي تمت بين المسلمين والنوبة والعنصر الرئيسي (يدفع الملك سنوياً 360 رأسا من الرقيق مقابل المؤن والأغذية).
5/ كان الرقيق النوبي في مصر عنصراً عاماً في تكوين الجيش مثال (كان أحمد بن طولون أول من استخدم السودانيين في الجيش الطولوني، وبلغ عددهم أربعين ألف سوداني. ويقول المقريزي أنه حصل عليهم بطريق الشراء، إذا صح ذلك فإن بلاد النوبة تعرضت لحملات استنزاف كبيرة من قبل تجار الرقيق وخاطفيهم. إضافة إلى بلوغ العدد في جيش المنتصر بالله خمسين ألفاً.
6/ أما بخصوص الجاريات النوبيات فقد كان دورهن مهماً في الحياة المصرية فنجد منهن من تخصصن في تربية أولاد السلاطين وتنظيم الأفراح والأعياد وترتيب شئون الحريم السلطاني.
7/ استخدم التجار العرب الرقيق في استخراج الذهب والزمرد من مناجم وادي العلاقي.

وبهذا يمكن الحديث عن أنماط التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية للنوبة حيث نجد:

أ. نمط إنتاج إقطاعي: والذي له سمات وخصائص معينة، حيث كان الملك ومعه حكام الأقاليم يعدُّون كل الأرض ملكهم، وأن الرعايا العاملين كانوا يعدُّون عبيداً لهم، أي أن ملك النوبة كان

يمتلك الأرض والعاملين عليها، وبالتالي فان جهاز الدولة كان يستحوذ على كل فائض عمل العبيد، مقابل معيشتهم.

ب. نمط إنتاج قائم على العبودية، والذي كان متداخلاً مع نمط الإنتاج الإقطاعي، والذي يتميز بالوظائف التي كان يشغلها الرقيق في النسيج الاقتصادي الاجتماعي للمجتمع النوبي والتي ذكرناها سابقاً: تصديري الخارج، وسيلة تبادل، عمل في مناجم الذهب والزمرد وفقاً لعلاقات الإنتاج العبودية.

ت. نمط إنتاج سلعي: حيث كان النوبة يستخدمون النقد (دينار – درهم – ريال) مع المسلمين في بلاد المريس والمقايضة جنوب بلاد المريس، كما عرف النوبة التجارة الداخلية والخارجية مع بلاد الحجاز ومصر وغيرها، كما ازدهرت التجارة والصناعة الحرفية وقامت المدن والمراكز التجارية والثقافة والدينية الهامة.

وهكذا نري أنفسنا أمام تشكيلة لها سماتها وخصائصها الفنية التي تتميز عن باقي أنماط إنتاج البلدان الأدنى سواء كانت آسيوية أو أوربية أو البلدان الشرقية (تاج السر، 2003م، 63).

2/ التركيبة الاجتماعية في منطقة (المحس):

أ/ السكان:

المحس فرع من المجموعة النوبية الذين يسكنون في المنطقة الواقعة بين أسوان والدبة، ومنطقتي خشم القربة في إقليم البطانة وكوم أمبو في صعيد مصر. وهنالك مناطق أخرى داخل السودان وخارجه، خاصة في الخارج (دول الخليج العربي) التي هاجر إليها النوبيون طلباً للرزق. ويتحدث السكان لغة النوبيين (Nubian) وهي لغة سكان المنطقة الواقعة بين جنوب أسوان والحدود الشمالية لمنطقة دنقلا.

ويمكن تقسيم سكان المنطقة إلى خمس فئات هي:

1/ المزارعون (تربري): وهم سكان المنطقة الأصليون، وهم الذين يمتلكون الأراضي، حيث يقومون بزراعة النخيل والقمح والبقوليات ومحاصيل أخرى اعتماداً على الساقية قديماً، والآن الطلمبات الآلية في رفع المياه للري.

2/ رجال الدين (الفقرا): وهم من العرب وغيرهم من رجال الدين الذين جاءوا من خارج المنطقة، واختلطوا مع النوبيين بالتزاوج. وكانوا يقومون بتعليم أبناء المزارعين القرآن والفقه وأصول الدين الإسلامي في الخلاوي، ونظير ذلك يأخذون جزءاً من المحصول. وقد امتلك بعضهم أراضي زراعية.

3/ الحدادون (تبدي): عرفوا بهذا الاسم نسبة لامتهانهم مهنة الحدادة، وكانت لهم أدوار مهمة في المجتمع النوبي، حيث يقومون بصنع الآلات الزراعية، إلى جانب المراكب الشراعية والسواقي. ومازال بعضهم يمتهن هذه المهنة خارج المنطقة وداخلها.

4/ العرب (اربري): وجدت بعض المجموعات العربية والتي تقطن أطراف القرى في المنطقة. وقد تأثروا بالثقافة النوبية وأجادوا اللغة النوبية إلى جانب لغتهم العربية. ويقومون بمهنة الزراعة وعملية جني محصول البلح مقابل جزء من المحصول بعد الاتفاق عليه، إلى جانب أعمال أخرى لهم.

5/ الرقيق (العبيد – أوشاري): كل العمليات الزراعية التي تتم كانوا يقومون بها، وتحت إشراف المزارعين المباشر. إلى جانب عمليات أخرى مثل رعاية الحيوانات والنظافة...الخ. وبعد عملية تحريرهم بقي بعضهم في المنطقة يمتهنون مهنة الزراعة، واتجه الآخرون لأعمال أخرى مختلفة (على عثمان، 2003م، مقابلة شخصية).

ب/ المجتمع:

نجد أن المجتمع النوبي في منطقة المحس (إقليم الشلال الثالث) يتكون من الأسرة (Nog)، وهذه الأسرة تمتد إلى أسر أخرى، وأفرع جديدة تلتقي كلها في وحدة واحدة تسمي مار(Mar) ، وهي القرية الصغيرة أو الحلة. ومجموع هذه الحلال تتجمع وتكون ما يسمى اركى (Irki) (مجتمع). ويمتد هذا المجتمع ليكون مجتمعات عديدة تربط بينها صلات القربى، ويسمى سر آوي (Sir Awi) وتمتد إلى مجموعة من المجتمعات المتداخلة والمترابطة بصلات القرابة والمصاهرة؛ لتكون ما يسمى ب(قر) "Gur" أي البلد كالنوبة مثلاً (Osman, 1998).

وفي المنطقة يسير التنظيم الاجتماعي على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: مستوى الأسرة، وفيه المرأة هي المسئولة الأولى عن إدارة شئون المنزل نيابة عن الرجل (زوجها)، وهو في الغالب غائب لجلب الرزق.

المستوى الثاني: وهو الاركى (الحلال) وهو مؤسسة اجتماعية تربط بين الأسر المختلفة، نجد مركزها في المسيد، وهذا المسيد يناقشون فيه القضايا التي تهم المجتمع. ونجد أن المرجعية والقيادة لكبار السن، وذوي العقول الراجحة في هذه المؤسسة الاجتماعية.

المستوى الثالث: وهو مستوى الحكم المحلي التابع للسلطة المركزية، أو الإقليمية ويضم مجموع القرى المجاورة، ورأس هذه السلطة المركزية قرتي (Gorti) أو الشيخ أو العمدة (عبد المجيد، 2002

م، 39).

اختلاط العثمانيين بالمحس (النوبة):

بعد دخول العثمانيين إلى السودان بصورة عامة ومنطقة المحس (الشلال الثالث) بصفة خاصة، لم يتم التداخل والتزاوج بينهم في بداية الأمر. ذلك للسياسة التي كانت تتبعها الدولة العثمانية في جميع أنحاء العالم المختلفة بعدم انشغال جنود الجيش العثماني بالنواحي الحياتية الأخرى مثل الزواج، وامتهانهم لمهن أخرى غير العسكرية ... الخ، بل يجب أن ينصب جل اهتمامهم وشغلهم الشاغل بالحروبات والفتوحات العثمانية الإسلامية في جميع أنحاء البلاد، إضافة إلى اعتقادهم بأنهم أفضل الجنس البشري في العالم كله على الإطلاق.

ومع مرور الزمن (خاصة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) بدأت هذه السياسة تترك تدريجياً ذلك للحد من الخطورة التي كانت تأتي من قبل فرقة الإنكشارية (إحدى الفرق العسكرية التي لها نفوذها في السلطة) حيث طغت هذه الفرقة، وعم العصيان والفوضى والاضطرابات كثيرا من أجزاء الدولة العثمانية خاصة العاصمة إستانبول.

وللحد من طغيان هذه الفرقة وإضعافها، وقتل روح العسكرية داخلها وكسر شوكتها، اتبعت الدولة سياسة تفريق الكثير من جنود هذه الفرقة في جميع أنحاء الدولة المختلفة، كما عملت على تزويج الجند حتى ينشغلوا بأمور حياتهم اليومية، حيث سمح لهم بالزواج إضافة إلى أن يمتهنوا مهنا أخرى غير الجندية مثل التجارة وغيرها. وقد عمت هذه السياسة كل الجند التابعين للدولة العثمانية المنتشرين في أنحاء الدولة المختلفة من بينهم الجنود البوسنيين والعرب والمجر الذين أرسلوا إلى السودان (النوبة) وتزاوجوا مع السكان المحليين.

من خلال الملاحظة العامة نجد أن هنالك ملامح تختلف تماماً عن سمات العنصر النوبي الأصلي خاصة في الطول والشكل واللون. . الخ وهذه السمات تظهر بوضوح كلما اتجهنا شمالاً في مناطق السكوت والحلفاويين وغيرهم؛ وذلك بسبب التزاوج. وهنالك ظاهرة أخرى جديرة بالاهتمام وهي ظهور أسماء تركية لم تكن في المجتمع النوبي مثل شوكت، مراد، شاويش، أغا، خوجلي، درويش وغيرها من الأسماء الأخرى التي أصبحت منتشرة الآن في المجتمعات النوبية الحالية. كذلك وجود أسماء أماكن في منطقة المحس لم نجد لها أيَّ معانٍ نوبية، وهي غريبة كذلك على المجتمع النوبي مثل أردوان و كومر. . الخ (سعيد، 2005م، 211). وبالرجوع إلى التاريخ الشفاهى يمكننا معرفة الكثير عن هذه الأسماء ومدلولاتها خاصة إذا تم الرجوع كذلك إلى المكتبات العالمية في إستانبول، الفاتيكان وغيرها التي ربما أضافت الكثير والكثير عن هذا.

علمياً لإثبات هذا "التزاوج" الذي تم بين العثمانيين والنوبيين في المنطقة، هنالك طريقتان يمكن إتباعها لمعرفة ذلك:

الطريقة الأولى: بواسطة الدراسات الانثروبولوجية (Physical Anthropology)

الطريقة الثانية: بواسطة الحمض النووي (DNA) ، وهو من الوسائل العلمية الحديثة التي يمكن أن تثبت لنا إن كانت هنالك علاقة ما بين السكان الذين تزاوجوا (الأتراك) مع السكان الأصليين (النوبة). ويتم ذلك من خلال العظام القديمة، أو من خلال أناس مازالوا على قيد الحياة.

علي كلٍّ كان المجتمع النوبي قديماً يتألف من طبقتين، الأولى وهي الطبقة الحاكمة، وهي تشمل الأسر الحاكمة والمالكة وكان على رأسها الملك الكبير، أما الطبقة الثانية وهي طبقة العبيد (عامة الشعب) وهي تقوم بخدمة الطبقة الأولى في جميع النواحي، وهنالك طبقة وسطى وهي طبقة الموظفين، وبصورة أو بأخرى نجد أن الملك هو المستأثر بكل شيء في المملكة، وجميع العبيد (الشعب) يقومون بخدمته.

ومع مرور الزمن تغير هذا الوضع خاصة بعد سقوط الممالك المسيحية وظهور الدين الإسلامي، حيث تغيرت كثير من العادات والتقاليد والمفاهيم التي كانت متبعة، وحلت محلها شرائع الدين الإسلامي التي تقوم على أسس تنظيم المجتمع والأسر والفرد كذلك. وبسبب هذه الشرائع الدينية السمحة حصل تغير في النظام الطبقي الأولي (الحاكم – العبيد)، واختفت هذه الطبقة، وأصبح الناس سواسية (إلا في بعض الحالات).

بعد ذلك تقسم المجتمع إلى فئات مختلفة كل على حسب المهنة التي ينتهجها، فنجد المزارعين ورجال الدين والحدادين والعرب والرقيق الذين يقومون بخدمات الزراعة وغيرها على حسب رغبتهم وبمقابل (عكس الرقيق سابقاً) وبحريتهم. ونتيجة لذلك ظهرت أجناس أخرى مختلفة مع العناصر القومية لهم سماتهم المميزة، تداخلت وانصهرت مع بعضها البعض.

تغير النظام الطبقي إلى نظام آخر يشتمل على العدل والمساواة والحرية والتكافل والترابط الأسري، وظهرت أهم مؤسسة اجتماعية في النوبة وهي المسيد الذي يمثل المركز الرئيسي لهذه الأنشطة الاجتماعية، وقد ساهم في زيادة الانصهار والتكافل والترابط بين المجتمع، وأصبح الصفة المميزة للإنسان النوبي الأصيل.

خاتمة:

تعدُّ منطقة (الشلال الثالث) من أغني المناطق في السودان، حيث تمتاز بمعطيات اقتصادية جعلت

منها بؤرة أو مرتعاً خصبا للإنسان منذ القدم. كما جعلتها جاذبة للانتباه منذ قديم الزمان، فالمصادر الطبيعية التي تمتلكها المنطقة وغيرها شجعت على الاستقرار فيها، كما نجد المناطق الزراعية (السهلية) على جانبي النيل على الرغم من ضيقها إلا أنها خصبة جداً. وبعد وصول العثمانيين للمنطقة عملوا على الاهتمام بالزراعة، وقاموا بتوسعة الرقعة الزراعية بزراعة أكبر مساحات ممكنة، والاستفادة من ذلك.

ونتيجة لتطور الزراعة ازدهرت التجارة، وعلى الرغم من وجود الشلالات والجنادل والصخور التي تعترض مجرى النيل إلا أننا نجد الملاحة النهرية، وبالرغم من ذلك نجد أن النيل في منطقة الشلال الثالث لعب دوراً مهماً ورئيسياً في الربط بين النوبة السفلى والنوبة العليا خاصة في حركة التجارة ووجود طرق القوافل بها، وأشار (بروكهاردت) على أهمية الموقع الاستراتيجي للمنطقة ككل (السودان) ومنطقة المحس بصفة خاصة.

ومن أهم العوامل التي تلعب دورا في ازدهار التجارة هي القوة المركزية (الحماية المركزية) لها والتي تؤدي إلى تطورها، حيث نجد تتابع الأنظمة السياسية وسطوتها على السلطة مثل العثمانيين نجد أنهم وبعد استيلائهم على المنطقة عملوا كذلك على استتباب الأمن بها وحمايتها؛ مما أدي إلى انتعاش طرق التجارة وازدهارها. كما نجد الصناعات الحرفية التي ميزت إنسان تلك المنطقة، حيث بازدهار الزراعة والتجارة ازدهرت الصناعات الحرفية وتطورت. إضافة إلى الثروة السمكية التي تزخر بها المنطقة، وغيرها من الأنشطة الاقتصادية الأخرى.

والمميز لهذا الاقتصاد أنه متعدد (زراعي، تجاري، صناعات حرفية، ثروة سمكية...الخ) وقد زاد هذا التعدد من الأهمية الاقتصادية في تلك الفترة حيث رفع من مستوى الفرد المعيشي، والذي أدي بدوره إلى رفع مستوى المنطقة والدولة، وقاد في النهاية إلى التطور في المجالات الأخرى عامة.

المصادر والمراجع

العربية:

- أبو سليم، محمد إبراهيم، **الساقية. معهد** الدراسات الإفريقية والآسيوية - دار جامعة الخرطوم للنشر. الخرطوم. 1980م.
- الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. د. ت.
- **أرشيف مشروع المحس** ، قسم الآثار جامعة الخرطوم 2003م.
- بروكهاردت، جون لويس ، **رحلات في بلاد النوبة 1793-1817م** ، ترجمة: فؤاد اندوراس، القاهرة، 1959م.
- تاج السر، عثمان ، **تاريخ النوبة الاقتصادي الاجتماعي** ، دار عزة للنشر والتوزيع ، 2004م.
- سعيد، عبدالرحمن ابراهيم، **الآثار العثمانية في منطقة المحس** ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم ، 2005م.
- شبيكة، مكي. **السودان في قرن.** بيروت 1965م.
- عبد المجيد، محمد أحمد ، **تحصينات العصر الوسيط في منطقة الشلال الثالث**، رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة وداي النيل 2002م.
- علي، عثمان ، **خواطر حول أصول الثقافة السودانية** (2)، مجلة الثقافة السودانية ، السنة الرابعة ،العدد 16، الخرطوم 1980م.
- فانتيني، الأب جورج ، **تاريخ دخول المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث** ، الخرطوم 1978م.
- مسعد، مصطفى حمد ، **الإسلام والنوبة في العصور الوسطى** ، القاهرة ، 1960م.

الأجنبية

- Adams, W. Y1 , 1977: *Nubia Corridor to Africa*. London.
- Çelebi, E. 1938. *Seyahatuamesi*: Misr, Sudan. University of Toronto
- Dawoud, A. S. and Ahmed, F. a Vail. 1973. *Geology of the Third Cataract***.** Northern Province. Khartoum.
- Nordstrom, H, A. 1972. *Neolithic and A-group Sites*. Archaeological expeditions.
- Osman. A. M, 1978. *The Economy and Trade of Medieval Nubia*-Dissertation Submitted for the Degree of Doctor of Philosophy at University of Cambridge-CHRISTS COLLEGE-Unpublished

- Osman, A. M. 1980. ”The Post- Medieval Kingdom of Kokka: means for letter understanding of the Administration of the Medieval kingdom of Dongola”. *SARS*. (ed) by J, N, Plumley, pp, 184-196, London.
- Osman. A. M. 1998: “*The Historical Settlement in the Third Cataract Region: A model for the Exploration of its Archaeological Stages*” presented to the 10th International Conference of the International Society for Nubian Studies, Boston.
- Trigger, B. G. 1965. *History and Settlement in lower Nubia*, New Haven.

المقابلات الشخصية

1. بروفيسور علي عثمان محمد صالح ، قسم الآثار، جامعة الخرطوم ، 2004م – 2018م.
2. عبد الله عبد الرسول ، 65سنة ، نارنارتي ، 2003م.